التدخل الخارجى

هناك بعض العلاقات الزوجية تكون على درجة جيدة من التوافق والتآلف بالرغم من وجود بعض السمات السلبية في شخصية أحد الزوجين، ذلك لأنه يوجد في سمات الطرف الآخر ما يقابلها من النقيض المناسب الذي يسمح بدرجة معقولة من التكيُّف بينهما، مثلا أن يكون أحدهما ضيق الأفق بينما الآخر بعيد النظر وحكيم، أو أحدهما عنيد بينما الآخر ليِّن، أو أحدهما ملول سريع الإحباط بينما يتميز الآخر برحابة الصدر والقدرة على التحمل، والأمثلة على هذا كثيرة ومتعددة، المهم أن يكون لكل سمة سلبية في أحد الزوجين ما يقابلها إيجابيا في الطرف الآخر، التي من خلالها يستطيع أن يتحمل شريكه في هدوء دون شعور بعبء أو معاناة .

د.طارق درويش
استشارى الطب النفسى

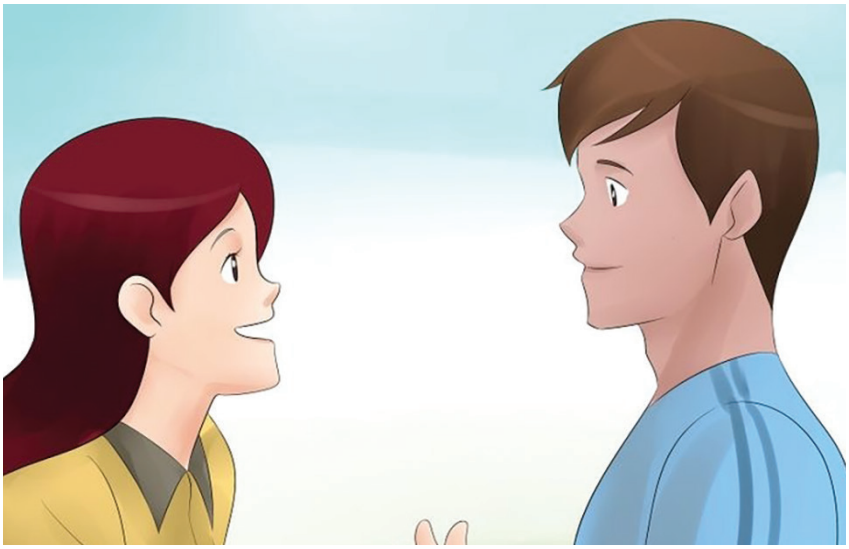

من الممكن أن تستمر تلك العلاقات لفترات طويلة دون مشاكل تذكر، ولكن هذا يحدث إذا كان الطرفان يعيشان بمعزل عن المجتمع المحيط بهما، ولكننا جميعا محاطون بشبكة من العلاقات الاجتماعية الممتدة والمتشعبة، فيها الأقارب والمعارف والأصدقاء والزملاء، وكل واحد من هؤلاء له تأثير ما علينا وعلى علاقاتنا بشكل أو بآخر، فنظرة امتعاض من أحدهم أو عدم رضا من آخر عن موقف ما، يجعلنا تلقائيا نراجع أنفسنا ونسأل عن السبب، وأي عيب بنا أو خطأ من الممكن أن نكون قد اقترفناه، فالبعض يرى أن هذا الزوج متسامح أكثر من اللازم مع زوجته، بينما آخرون يرون أن الفتاة بريئة وساذجة وتحتاج إلى توعية، وبعض آخر لا يرضيهم تقبل تلك الزوجة لوقاحة زوجها، وهكذا تصبح هؤلاء الزوجات والأزواج مرتعا خصبا لإسداء النصيحة ممن حولهم .

وغالبا ما تأتي تلك النصائح بوازع من الحب لأحد الأطراف والخوف عليه، أو لرغبة بعضهم المجردة للاستمتاع بتقمص دور الحكيم الواعظ، وأغلب تلك النصائح يصب في معنى واحد، هو ألا تسمح للطرف الآخر أن يتعامل معك بهذا الأسلوب أو ذاك، ويجب أن تجعله يعتاد على كذا وكذا، ومن غير المتوقع أن تجدي تلك النصائح أو تغيِّر من واقع الأمر شيئا، حتى وإن بدت مؤثرة في حينها، فهي عديمة القيمة على المدى البعيد، لأنه كما أوضحنا سابقا أن السمات المتأصلة في كلا الزوجين هي التي ستفرض نوع العلاقة بينهما، وستحدد الشكل النهائي لتلك العلاقة مهما حاول أحدهما تغيير تلك الحقيقة. بل إنها قد تؤدي إلى تنغيص الحياة الزوجية ونثر الأشواك في طريقها بغير مبرر، حيث إن الأمور التي كان يتقبلها أحد الطرفين في شريكه بسعة صدر وسماحة، وجد أن هناك من يفسره على أنه ضعف منه أو تهاون في حق من حقوقه، فيبدأ في مراجعة نفسه، ومن ثم يرفض ما كان يتقبله سابقا بنفس راضية، ولأن تلك التصرفات نابعة من سمات متأصلة في شريكه، فهي ليس من الممكن أن تتغير بالسهولة المتوقعة، فتصبح محل احتكاك دائم وصراع لا ينتهي إلى أن تمر السنون ويقتنع الزوج بعجزه عن تغييرها .

مثال على ذلك، ذاك الشاب الذي تقدم لخطبة فتاة هي أكبر إخوتها، أنهت دراستها الجامعية حديثا، أعجبه فيها ما يبدو واضحا عليها من هدوء وحلم وسكينة، كما أعجبها فيه نشاطه وطموحه وحيويته، وتم الزواج بينهما بعد فترة خطوبة قصيرة، وكان هناك تقارب وتعاطف واضح بينهما، ولكن الأم كانت متخوفة على ابنتها البكرية، فهي تراها ساذجة، ليس لديها خبرة كافية بالحياة، وكانت متشككة في قدرتها على أن تكون ربة بيت وزوجة وأما لأولاد، لذلك كانت تتصل بها بصفة يومية للاطمئنان عليها ومعرفة أخبارها، وكانت ابنتها دائما ما تطمئنها بهدوئها المعتاد، وتؤكد لها أنها سعيدة مع زوجها ولا ينقصها شيء .

في أحد الأيام ذهبت الأم لزيارتها، فاستقبلها زوجها مرحبا، وبعد فترة قصيرة استأذن منها لأنه على موعد عمل هام، وذهب للتأهب له، وبقيت الفتاة مع أمها تتجاذبان أطراف الحديث، ولكن لم تمض لحظات حتى أتى صوته من الداخل يسأل زوجته عن أحد قمصانه، وهو ذو صوت جهوري عالٍ، فيه حدة تعطي لمن لا يعرفه انطباعا أنه يأمر لا يطلب، فذهبت إليه للحظات ثم عادت تتابع حوارها مع أمها، بعدها بقليل أتى صوته مرة أخرى يسألها عن أحد ربطات العنق، فأخبرته وهي جالسة فى مكانها، وساد الصمت للحظات حتى أتى صوته مرة أخرى يسألها عن أحد الجوارب، فأخبرته عن مكانه أيضا، وبدأت تفقد سياق الحديث الذي كان يدور بينها وبين أمها، وبينما كانت تحاول أن تتذكر فيما كانتا تتحدثان، أتى صوته يخبرها أنه لم يجد الجورب، فاستأذنت الفتاة من والدتها وغابت للحظات، حيث أعطته إياه وعادت إليها ثانية تسألها فيم كانتا تتحدثان، وبينما كانتا مستغرقتين في البحث عن خيط الحديث المفقود، أتى إليها زوجها يطلب

منها على استعجال أن تعد له كوبا من الشاي ليشربه قبل أن يغادر للعمل، فذهبت في تثاقل لإعداده، وبينما كانت مستغرقة في عملها، أتى صوته من الداخل يسألها عن الحذاء، فقد وجد أحدهما ولم يجد الآخر، فقالت له وهي منهمكة في عملها، ابحث بجانب الأول من المؤكد أنك ستجد الثاني، فقال لها بحثت ولم أجد، فتركت ما كانت تفعله وذهبت تبحث له عن حذائه المفقود، وأعطته إياه ثم عادت مسرعة تحاول الانتهاء من إعداد الشاي بسرعة حتى تعود لأمها التي بدأت تشعر تجاهها بالحرج، وأعطته الشاي الذي ارتشف منه رشفتين على استعجال ثم نظر في ساعته وقال لقد تأخرت كثيرا فترك الشاي وحيا حماته من بعيد ونزل مسرعا .

أغلقت الزوجة الباب خلف زوجها، وعادت إلى والدتها وقد بدا عليها الإرهاق، بادرتها وهي تتنهد : هيا نكمل حديثنا.

ولكن الأم كانت صامتة وقد بدا على وجهها علامات الوجوم، وحاولت الفتاة أن تتجاهل التغير الذي طرأ على مزاج أمها، وتستطرد حديثها السابق، ولكن الأم ما عادت تسمعها، بعد وهلة بادرتها أمها قائلة : يبدو أن زوجك يتدلل عليك كثيرا.

فابتسمت ابنتها قائلة : يا أمي ... إنه زوجي، إن لم يتدلل عليّ، فعلى من سوف يتدلل.

وصمتت الأم ولكن كان واضحا أن إجابة ابنتها لم ترضها، وغادرت الأم في ذلك اليوم تجر خلفها ذيول الإحباط، بينما تركت ابنتها تلفها مشاعر الضيق والحيرة، فقد لاحظت التغير الذي طرأ على والدتها، ولم يكن خافيا عنها أن هذا التغير كان بسبب سلوك زوجها، ولكن في الحقيقة أن سلوك الزوج لم يغضب الأم بالقدر الذي أغضبها به رد فعل ابنتها المطيع، المستكين، المتسامح .

وتكرر هذا الموقف ومواقف أخرى مشابهة في وجود بعض صديقاتها، ولاحظت نفس النظرات في عيونهن، وبات هذا الأمر يضايقها، وكانت تقول لنفسها إن زوجها قد يكون عجولا بطبعه، غير مرتب، شديد التلقائية، ومفرطا في الاعتماد عليها، ولكنه إنسان طيب، محب لها، وفيه الكثير من المشاعر الإيجابية، لذلك كانت تتقبل تلك الأمور بصدر رحب، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت أمها وبعض من صديقاتها يعبّرن لها بوضوح عن عدم ارتياحهن لأسلوب زوجها في التعامل معها، وتسامحها الشديد معه، وبدأت أمها تقول لها إنها يجب أن تعوّده الاعتماد على نفسه، فبعد فترة من الوقت سيأتيها الأبناء، وسيصبح الحمل ثقيلا عليها، ولا ينبغي أن تعوّده من البداية على هذا القدر من الاعتمادية، كما بدأت صديقاتها يلمحن لها صراحة، كل واحدة حسب رؤيتها، فبينما ترى إحداهن أنه لا يحترم مشاعرها في وجود صديقاتها، ترى أخرى أنه يستغل طيبة قلبها ويستهلكها بدنيا، وأخرى تعتبره أنانيا لا يأبه إلا لمصالحه الخاصة، وأخرى تخبرها أنه لا يأبه لمعاناتها ولا يقدر المجهود الذي تبذله من أجله ..... وبدأت كل واحدة منهن تعطيها من نصائحها وتلقنها دروسا في كيفية التعامل مع الأزواج، مؤكدة لها أنها استخدمت بعض تلك

الطرق مع زوجها ونجحت نجاحا تاما .

بدأت الزوجة المسكينة تضيق ذرعا بكل هذا، نصائح أمها المتكررة، تلميحات صديقاتها الجارحة، وأيضا سلوك زوجها الذي سبب كل هذا العناء، وبالفعل بدأت شيئا فشيئا تعلن عن رفضها لأسلوبه معها، وصارت كلما سألها عن جورب أو حذاء، تقول له ابحث أنت عنه، فإذا أخبرها أنه بحث ولم يجده كما كان يحدث في السابق، تقول له ابحث مرة أخرى، وإذا أصر في طلبه ترد عليه بحدة رافضة الانصياع له، وبالطبع لم يرضه هذا الأسلوب، فبدأ يثور عليها، وبدأت المشاكل تدب بينهما، وتتصاعد في حدتها مع تزايد التدخل الخارجي، ولم تكن الزوجة راضية عما يحدث، وكذلك الزوج، ولكن الأم كانت سعيدة، وكذلك الصديقات، لأنهن يرين في تلك المشاكل تغيرا إيجابيا في الزوجة التي أصبح لها كيان وشخصية، وأصبحت قادرة على أن تعبر عن رفضها لشيء كان يضايقها، ولكنهن تناسين أمرا هاما، أن تلك الأمور لم تكن تضايقها هي، بل كانت تضايقهن هن، ففعلت ما يرضيهن، ولكن على حساب ما يرضيها، وعلى حساب مشاعر المودة والألفة في حياتها الزوجية .

وهكذا زادت المشاكل بينهما، وتصاعدت حدتها، ولكن الزوج لم يتغير، فقد ظل كما هو عجولا، غير مرتب، تلقائيا، ربما قل اعتماده عليها بعض الشيء في تلك الفترة، ولكن بعد أن هدأت الأمور بينهما، عاد اعتماده عليها إلى ما كان عليه سابقا، كأن شيئا لم يكن .

وكانت هذه العودة أمرا منطقيا، لأن هذا التحجيم الوقتي كان مرتبطا برفض وقتي منها، لأن هذا الرفض ليس نابعا منها بشكل تلقائي، كان من الممكن أن يحدث بعض التحجيم الدائم إذا كانت الطباع الأصلية للزوجة ترفض هذا الأمر تماما وبشكل دائم، لأن سيكون له رفض دائم منها، وإعلان مستمر عن هذا الرفض، مما سيدفع الطرف الآخر إلى السعي الدائم لمحاولة تحجيمه إذا كان يبغي الاستمرار في حياته الزوجية، ولكن غالبا ما يتم هذا التحجيم بقدر محدود، ليظل الأمر محل خلاف دائما بينهما .

●●●

وهكذا نلاحظ كيف للتدخل الخارجي أن يفسد العلاقة الزوجية، ويضر أكثر مما يفيد، خاصة إذا كان مفروضا على الطرفين دون رغبة أي منهما فيه، فليس من الحكمة الاستماع لنصيحة إلا إذا كان هناك بالفعل حاجة إليها، ويجب أن تكون ممن هم على درجة كبيرة من الوعي والحكمة، لأن الغالبية العظمى من الناس يرون الأمور من منظورهم الخاص، ويأتي حكمهم على المواقف من خلال خبراتهم الشخصية بل وعُقدهم الخاصة، وليس واقع الحال، كما أنهم حين يسدون النصيحة يعتمدون على معايير تختلف تماما عن المعايير الخاصة بصاحب المشكلة، حيث إن لمن ينصح سمات تختلف عن سمات من ينصحه، كما أن شريك ذلك الناصح له طبيعة قد تكون مختلفة كليا عن شريك المنصوح، لذلك ما قد يتقبله شريك الناصح، قد يكون مرفوضا تماما من شريك من ينصحه، والعكس أيضا صحيح، كذلك لا ينبغي الشكوى لمن لا دخل له، أو لأطراف متعددة، حتى وإن كان من باب تفريغ شحنة الغضب أو الإحباط المشتعل بداخله، حتى لا تصبح خصوصيات الحياة الزوجية مثارا للمناقشات العامة، وإبداء الآراء لكل من هب ودب، فهذه أمور تفسد ولا تفيد، وتعمّق الخلافات وتزيد المشاكل تعقيدا ولا تحل من الأمر شيئا .

● لذلك يجب أن تكون هناك حكمة فيما نقول، ولمن نقول، كما لا ينبغي الاستماع لكل ما يقال، أو التأثر بكل ما يثار من حديث، وهذا الأمر يتطلب ثقة عالية بالنفس، وتعقلا شديدا، واستعدادا فطريا لعدم التأثر بالآخرين، وهذا لا يتوفر للكثير من الناس، لذلك غالبا ما يتأثر الأزواج بتلك الأمور، وتثور الكثير من المشاكل بسببها. والوعي بتلك السمات من الأمور الهامة للغاية ويجب علينا محاولة الارتفاع بها والوصول إلى أقصى سعة ممكنة لها بداخلنا، حتى نحصّن أنفسنا من التدخل السلبي للآخرين في حياتنا .